حول مقال

يقظة الوعى الاسلامى

« الى الأستاذ محمد عبد الله عنان »

الأستاذ محمد رجب البيومى

أخذ الروح الإسلامى فى مدى عشرين عاما يرسل أضواءه المتلاحقة فى المجتمع المصرى الحديث ، حتى أصبح لدينا وعى دينى يحسب حسابه ، ويلمس أثره الواضح فى كل اتجاه ، غير أن طائفة من الكتاب يطبقون عيونهم عما حولهم ، فلا يقدرون لهذا التيار العنيف أثره البعيد فى اختلاف النظرة ، وتحول الرأى ، بل يتكلمون عن الدين كما كانوا يتكلمون عنه فى مطلع هذا القرن ، قبل أن تتبدل الحال غير الحال ، حيث أفلح الاستعمار فى أداء رسالته التبشيرية ردحاً من الزمن ، فرسم للشريعة الإسلامية صورة مخيفة مفزعة تتقوض معها دعائم الحضارة والعمران ، وقد أذن الله أن ينجاب ليل الباطل عن النفوس ، فأخفق أعداء الإسلام فى محاربته ، وأسفر صبحه الوضئ بهيجاً ساطعاً ، فسار الناس على ضوئه وطالبوا بتحقيق رسالته ، وهم لابد واصلون إلى ما يبتغون على يديه من خير وإصلاح

ولقد كانت القوانين الوضعية تسن فى مصر مخالفة روح الشريعة الإسلامية قانونا إثر قانون ، ويقابلها الرأى العام فى الصحف والأندية مرحبا هاتفا ، فإذا اعترض عليها مسلم مخلص لدينه وعقيدته ، رمى بالجمود المتأخر ، والرجعية البالية ، وقوبل حديثه باستخفاف هازئ وسخرية مريرة ، أما الآن فقد تيقظ الوعى الدينى فى الأمة المصرية تيقظاً يبشر بالخير والسداد ، والتف الجمهور الناضج حول الشريعة الإسلامية التفافا متماسكا ، وسمع الناس كلمة الدين فى حقوق المرأة تدوى عالية قوية ، فيذعن لها أصحاب التشريع ، ويقف لديها القانون سامعاً مطيعاً ، ولكن الرجوع إلى الحق لم يرض فريقاً من الناس فاندفعوا يهاجمون القوانين الدينية هجوما فاشلا ، ويرددون النغمة البالية التى لحنها الاستعمار قديماً لتحول بين الشعب وكرامته ، فهم ينفرون الوطن بالتأخر والفشل إذا احتكم لقرآنه فى تشريع ، أو تبع دينه فى مذهب ، وقد أدهشنى أن أجد الأستاذ محمد عبد الله عنان — مع ما عرف عنه من التعقل والاتزان — يصيح مع هؤلاء الناقمين ، فيهجم على قوانين الشريعة هجوما ظالما ، ويرى فى نظمها العريقة تقهقرا لا يليق بمجتمع متحضر مستنير ، وسأنقل هنا بعض ما كتبه الأستاذ بالعدد (٧٠٦) من مجلة الثقافة الغراء ، دون أن أشوه حديثه بالتلخيص الموجز ليقف القراء على رأيه من أقرب طريق .

يقول الأستاذ :

« والحقيقة أن هذا الاتجاه (نحو الشريعة الإسلامية) خاطئ من أساسه ولا محل على الإطلاق أن يتخذ الدين أساسا لمثل هذا الموضوع ، سواء لتوكيد التحريم والإباحة ، وإذا كانت مصر دولة إسلامية فليس معنى هذا أنها دولة دينية ، أو بعبارة أخرى أنها دولة تطبق أحكام الدين فى سائر نواحى الحياة العامة ؛ فالنظم الأساسية والقوانين المدنية والجنائية المصرية كلها نظم وقوانين تطبعها الصفة اللادينية »

إلى أن يقول : « فإذا ما تقرر ذلك وهو أن النظم والقوانين المصرية هى نظم مدنية لا دينية ، لأنها هى النظم والقوانين التى توافق روح العصر ومقتضيات الحياة الاجتماعية ، فلا محل لأن نحمل الدين حكما فى مسائل لا علاقة لها بالدين ، ولا نمس العقيدة الدينية ذاتها ، ولا محل إذن لنرجع بمطالب المرأة السياسية الاجتماعية إلى أحكام الدين مادامت هذه المطالب لا شأن لها بالعقيدة »

ثم يقول فى النهاية : « فمحاولة النيل من هذه النهضة المباركة (نهضة المطالبة بحقوق المرأة) والرجوع بها إلى الوراء باسم الدين أمر لا يقبله عقل مستنير أو منطق سليم »

ونحن حين ننقل هذا الكلام الجرىء لا نرغب أن نعقب عليه بنقد يكشف خطأه للناس ، فالناقد المخلص يشرع قلمه حين يخشى استجابة المجتمع لرأى خطير يلتبس فيه الحق بالباطل ، ولكن الوعى السائد يتكر بداهة ، أن يوجد فرق بين الحكومة الاسلامية ، والحكومة الدينية ، كما يعتقد الأستاذ ، فكل حكومة لا تلتزم شريعة الإسلام فليست إسلامية ولا دينية معاً ،

ومن الخطأ الواضح أن يعتقد مسلم أن الدين شيء والإسلام شيء آخر ، فإذا وجد من يجرؤ على هذا القول فى مجتمع رفع الغشاوة عن عينه ، فلن يجد من يستمع إليه ، ولا حاجة لمن يتعقب كلامه بنقد صريح ، إنما الحاجة ماسة إلى من يوقف الكاتب وأمثاله على مدى النشاط الدينى الذى أخذ يسيطر على الحياة المصرية سيطرة مباركة ليزن كل كاتب كلامه عن الإسلام بميزان دقيق

والدهش الذى لا يتوقعه القارئ من الأستاذ عنان بعد أن كتب هذا الكلام ، أنه يتفق مع رجال الدين فى هدف واحد ، فينادى بحرمان المرأة مما نزعه لها من الحقوق ، ولكنه يرفض أن يكون هذا الحرمان وفق تعاليم الشريعة الإسلامية كما يقول رجال الدين ! بل احتذاء وتقليداً لفرنسا وإنجلترا وبلجيكا ! إذ أن هذه الدول الغربية قد لزمت الحيطة والأناة حين منحت للمرأة حقوقها السياسية فى فترات متباعدة ، ولم تفتح لها الباب على مصراعيه مرة واحدة ، فالثورة على القوانين الإسلامية وحدها هى التى تشغل بال الأستاذ ، وتدفع به إلى محاربتها دون ترددوا كثرات

ولقد كان اللائق بالكاتب بعد أن تشبث بالقوانين الوضعية واعترف بأنها — وحدها — التى توافق روح العصر ، ومقتضيات الحياة الاجتماعية ، أن يدافع عنها دفاعا يحببها إلى الذهن المصرى الحديث ، بعد أن كفر بها كفراً لا مزيد عليه ، إذ أنها سيطرت على التشريع المصرى حقبة طويلة ، ففتحت الطريق للرشوة والظلم والاستبداد ، ومحت معانى العزة والحرية والكرامة من النفوس ، وهذه القضايا السياسية الفاضحة التى تمتلئ بها صفحات الجرائد كل يوم لم تكن غير نتيجة حاسمة لهذه القوانين الآثمة التى تستر على الخيانة والرشوة والاختلاس والتبذير ، حتى فطن المصريون إلى ما تجره الشرائع الغربية من نكبات أليمة على الشرق والإسلام ، فأعلنوا الحرب عليها فى غير هوادة ، وسيأتى اليوم التى تلفظ فيه أنفاسها فى الشرق الإسلامى إلى غير رجعة مادام فى الشرق قرآن يعلن كلمة الله ، وجمهور يعتقد أن الحكم بغير شريعة الإسلام ضلال وكفران

وإذا كانت الدساتير الحديثة التى يؤمن بها الأستاذ عنان تنادى بأن الأمة مصدر السلطات ، فلماذا يخالفها الأستاذ مخالفة سافرة فيتحدى الشعور السائد فى الجمهور ، ويتجاهل ماطرأ على المجتمع من تطور سريع فى الرأى والاتجاه ؟ ويغمض عينه عن الآلاف المحتشدة التى تنادى بالاحتكام إلى الإسلام ؟

إن كان الكاتب فى شك مما نقول ، فلينظر إلى من يطالبون بشريعة القرآن الآن ؟ أهم الأزهريون وحدهم كما كان الحال منذ أعوام ؟ أم أن الصفوة المختارة من الشباب الجامعى طلابا وأساتذة يجاهدون فى هذا السبيل جهاداً يوشك أن يكلل بالنجاح !

من المسيطرون اليوم على دعوة الإخوان المسلمين ؟ أليسوا أعلام القانون وأساتذة التشريع فى مصر ! أفينقصهم العقل المستنير الذى يتشبث به الأستاذ عنان ، أم أنهم يشاركونه الفقه والتعمق والإنتاج !

لقد كان على الأستاذ الفاضل — وهو كاتب لامع ينشر مقالاته فى الصحف اليومية — أن يلحظ ماطرأ عليها من اتجاه ملحوظ نحو الدين ، فقد أفردت صفحاتها الواسعة لمناقشة المسائل الدينية نقاشاً مسهباً ، وتسابقت كل جريدة فى تصيد الأبحاث الإسلامية بحثا وراء بحث ، ومن أصحاب هذه الصحف من لا يرحبون بتعاليم الإسلام ، ولكنهم يملقون الوعى الدينى فى الأمة ، ويودون التحبب إلى القارئ بشتى الوسائل ، وفى الكتابة الإسلامية ما يغذى العقول ويشبع الرغبات

لماذا أصدرت أخبار اليوم كتابا عن محمد ، ولماذا أصدرت دار الهلال كتابا يفسر آيات القرآن ؟ أكان المهيمنون على الصحيفتين من عشاق الفكرة الإسلامية فى يوم من الأيام ؟ أم أن الوعى الدينى قد أجبرهم على الإذعان لمشيئته ، فألقوا إليه السلم طائعين ، والتاجر الناجح هو الذى يقدم الثمرة المشتهاة ، ليتدفق عليه الثراء وتتضخم لديه الأرباح !

هذه هى المحاضرات اليومية المتنوعة ، يعلن عنها فى الصحف مساء فلماذا يختار الشباب منها ما يمت إلى الإسلام بأقرب الصلات ؟ وهذه هى المجلات الإسلامية تتزايد يوماً بعد يوم فلماذا يتكالب عليها القراء رغم ما يحمله غيرها من مغريات اليانصيب والسباق ، ورغم ما تتعلق به الغرائز من صور وأقاصيص !

أليس من المضحك أن يعيش كتابنا الأفاضل فى عزلة تامة عن مجتمعهم المتوثب ، فهم لا يحسون بما يسوده من تطور وانتقال ! فإذا كتبوا إليه أخذوا يرددون ما تعافه الأسماع !